يهدي للتي هي أقوم

الشيخ الأستاذ عمر عبيد حسنه

بحث نشر في كتاب

"رسالة القرآن"

بمشاركة نخبة من الباحثين والكتاب

وتنسيق إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بدولة قطر

الطبعة الأولى ربيع الأول 1431هـ - شباط (فبراير) 2010م

أعيد نشره إلكترونيا رمضان 1439 هـ / 2018م

يهدي للتي هي أقوم

الشيخ الأستاذ عمر عبيد حسنه (*)

التنوع والمدافعة من سنن الله، وهي السبيل للتكامل والتنمية، فلكل أمة اهتمامها وتميزها، فمن التفوق اللغوي والنزوع إلى التسامي الروحي إلى التأمل الفلسفي واعتماد العقل وسيلة المعرفة إلى التميز في المجال التشريعي... وليس ذلك على مستوى الأمم، وإنما على مستوى الأفراد، حيث لا ينكر أمر الفوارق الفردية، لذلك جاء الخطاب القرآني العالمي بمناهجه المتعددة وأساليبه المتنوعة ليحيط بذلك كله.

- مدخل:

تأملت ملياً في محاولتي العثور على عبارة وجيزة تختزل «رسالة القرآن» إلى الناس وتُعرِّف بها، بكل أبعادها، فما وجدتُها إلا في القرآن، فلا أدلَّ ولا أقوم من قوله تعالى في بيان وظيفة القرآن ورسالته للناس: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:9).

فالقرآن بذلك يُعتبر كتاب هداية، بالدرجة الأولى، ودليل حياة، وسبيل نجاة على جميع الأصعدة، فهو شكَّل الأمة المسلمة، وأقامها على الطريق الصحيح، وقوّم اعوجاجها، وأعطاها قيمة ومكانة،

(*) مدير إدارة البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر سابقا

وهـــداها إلى ســـبيل الســـلام: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ (الزخرف:44)؛

وهو مصدر قيم وسفر هداية مفتوح، على كل الاتجاهات، على الرغم من تنوع أساليب المنطق، وتعدد وسائل ومناهج الإقناع، سواء في ذلك اعتماد «المنهج البرهاني» المقنع في خطاب العقل وطلب النظر والتفكر والتدبر والاعتبار والمقارنة والملاحظة والمقايسة؛

أو «المنهج البياني» البلاغي المعجز، الذي يُقدِّم أرقى الأساليب وأوضحها وأدلها بياناً، وأعظمها تأثيراً، وأعمقها أثراً؛

أو «المنهج العرفاني» المؤثر والآسر، الذي يتوجه إلى القلوب والمشاعر، الأمر الذي يشكل بمجموعه وتنوع وسائله وأساليبه خطاباً للإنسان وإيقاظاً لوعيه، بكل مكوناته؛ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف:54).

مناهج الهداية

القرآن يستخدم لتحقيق غرضه في الهداية للتي هي أقوم وتحصيل الإقناع والاستدلال كل المناهج والوسائل والأدوات والشواهد.

- المنهج البرهاني:

فالمنهج البرهاني، الذي يؤسس له القرآن، يُحرض على التفكير، وينمّي العقل ويروِّضه، ويدربه على الاستدلال، والاستنتاج، والمقارنة، والملاحظة، والقياس، والاستقراء، واكتشاف النتائج من المقدمات، وإبصار العواقب والمآلات، وإدراك القوانين والأقدار وآلياتها، ويستبين سبل مغالبتها: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (يونس:101)، ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ (الإسراء: 36)، ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة:111).

- الدعوة إلى النظر في ملكوت الله:

النظر في الكون والتفكر في آلاء الله وآياته، يُعتبر من أهم وسائل إعمال العقل وتنميته وتدريبه وتوجيهه لاكتشاف سبل الحق والخير، الأمر المتوفر لكل إنسان بحسب مكتسباته، واكتشاف نظامه المُمَكِّن من تذليله وتسخيره للإنسان، ولفت النظر إلى السنن التي تحكمه، ومن ثمّ الاستمرار في رحلة اكتشاف هذه السنن والتعرف عليها، والعمل على تسخيرها لصالح الإنسان، وليس الاقتصار في مردود النظر على مجرد التسليم بوجود الخالق وعدم عبثية الخَلق- وهو الهدف الأساس بلا شك-

دون إدراك الغايات والأهداف الأخرى لهذا النظر والتحقق بمردوده، حيث الكون أصبح اليوم من أكبر ميادين البحث العلمي والمكتشفات الباهرة، التي قفزت بالإنسان قفزات نوعية، واختزلت له الزمان والمكان، ولا يزال ينظر ويتفكر....

وتستمر رحلة الكشف العلمي والمعرفي بدفعٍ من القرآن حتى يرث الله الأرض وما عليها: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:53).

- القصص مناط الاعتبار:

وليس أمر إيراد القصص، التي تروي وتُبين مسيرة الحياة، وما اعتورها من إصابات، وتُبصِّر بعوامل السقوط والنهوض، وتؤكد اطراد القوانين الاجتماعية، التي تحكم الحياة والأحياء، بأقل شأناً وإعمالاً للعقل من النظر في ملكوت الله؛ إن قصص الأنبياء والتاريخ البشري هي التي تحقق العبرة للحاضر والمستقبل؛ العبرة التي تعني – فيما تعني- التمكن من العبور الآمن والسليم من الماضي إلى الحاضر والتطلع إلى صناعة المستقبل بخطى ثابتة وآمنة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(يوسف:111).

ولعل ضرب الأمثال واعتصار تجارب إنسانية متنوعة في نماذج مجسّدة يسهل إدراكها والخلوص إلى عبرها، لا يقل شأناً عن إيراد القصص.

- الحقيقة العلمية والإغراء باكتشافها:

إن الإغـراء بالحقيقـة العلميـة والاستشـهاد بهـا، للفـت النظـر إليهـا، والتـدريب عليهـا، والتحـريض للوصـول إليهـا، وتوظيفهـا في تحقيـق الهدايـة واستكناه الأمر الإلهي في النظر إلى أهمية التوغل في كشف هذه الحقائق والإفادة منها، يُعتبر من أعلى مراتب الاجتهاد والاستدلال والعمل العقلي واعتماد المنهج البرهاني، الذي يبدأ من وضع الإنسان أمام نفسه، وتوجيه نظره للداخل، وأهمية عكوفه على ذاته، ودفعه لسبر أغوارها: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الذاريات:21)، ومن ثمّ الانطلاق منها إلى الآفاق البعيدة والممتدة في معرفة سنن الأنفس؛ تلك السنن، التي تتيح خيارات للبشر، كما تتيح القراءة الصحيحة لاستشراف رحلة الإنسان، وإبصار المستقبل، في ضوء ذلك، وتحقيق السبق والكشف العلمي والمعرفي، والتأكيد بكل مناسبة أن هناك قوانين وسنناً تحكم الأنفس والآفاق ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ (المؤمنون:115)، وأن عدم تبيُّن هذه السنن، في الأنفس والآفاق، مُوقِعٌ في الارتطام وعدم الانسجام والعجز عن التسخير ومغالبة قانون بقانون، أو قدرٍ بقدر.

تلك المغالبة التي كانت وراء كل التقدم الذي أحرزته البشرية، ذلك أن الغفلة عن إدراك هذه الآيات والإعراض عنها واكتشاف القوانين، التي تحكمها موقعٌ في التخلف والنكوص عن مهمة النظر والتحقق بالرؤية الموصلة إلى كشف السنن المَمَكِّنة من تسخيرها: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ (يوسف:105)، حيث الإشكالية في التوهم: أن امتداد الغفلة والإعراض والعزوف عن التفكر والنظر تعني التدين الحقيقي وسلامة القلب، وذلك من علل التدين، الذي

وقعت به الأمم السابقة وبدأت تتسرب إلى العقل المسلم: «أطفئ سراج عقلك واتبعني»، وأن العقل نقيض الوحي(!)

- من الحفظ والتلاوة إلى التدبر والاعتبار:

والذي نود أن نؤكده أن الوصول إلى الهداية للتي هي أقوم لا يتحقق إلا بتدبر القرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد:24)؛ التدبر والتأمل الذي يوصل إلى اكتساب ملكة التدبير، كما أسلفنا، وإزالة اللبس، والتمكن من كسر الأقفال من على القلوب والعقول، وإيقاظها لإبصار طريق الحياة الطويل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص:29)؛ التدبر الذي يمنح التقوى وملكة الفرقان والتمييز فيما يشتبه من الأمور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال:29)، وذلك هو بعض معاني تدبر القرآن والعمل به.

أما ما يتوهمه بعض الناس اليوم من أن التدبر هو التلاوة فقط وإعادة التلاوة، دون أن يتحقق بالمقصود الأساس من التلاوة، فذلك هو الخسران المبين؛ ذلك أن التدبر الحق هو الذي يقود إلى التدبير ومنح رؤى للحياة بكل تعقيداتها.

فعَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ، رضي الله عنه، قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا فَقَالَ: «**وَذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ**»، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ**

يَا ابْنَ أُمِّ لَبِيدٍ، إِنْ كُنْتُ لأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ لا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيهِمَا بِشَيْءٍ؟»(1).

إن غياب التدبر بدلالته الحقيقية هو افتقار للمعنى الصحيح للتلاوة وتعلم القرآن وتعليمه؛ افتقار للخيرية المنوطة بالتعلم والتعليم، التي أخبرنا بها الصادق المصدوق: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(2).

فالاعتقاد أن مجرد التلاوة باللسان وتحصيل كم كبير من المساحة المقروءة هو المقصود النهائي، فأمر – فيما نرى- مجافٍ لمقاصد التلاوة نفسها، حيث نخشى أن تصدُق فينا عندها مقولة: «إنما أُنزل القرآنُ ليُعمل به فجعل كثير من الناس من تلاوته عملاً»؛ ذلك أن التطبيق والتنزيل على الواقع ومعاناة التجربة الميدانية عملٌ وفقهٌ لمقاصد الآيات، ومن هنا نُدرك قولة بعض الصحابة: إنهم كانوا لا يتجاوزون الآيات إلى غيرها قبل إعمالها والعمل بها، حيث تعلموا العلم والعمل معاً.

- مصدرية القرآن:

ونعاود القول:

إن القرآن دليل حياة ومصدر هداية للتي هي أقوم، كما أسلفنا، بالدرجة الأولى:

- فالقرآن دليل الحياة، في مجالاتها المتعددة؛
- والقرآن مصدر القيم، التي تُنظم مسيرة الحياة وتضبط إيقاعها؛
- والقرآن معيار التقويم والتقييم للفعل الإنساني؛

---

(1) أخرجه الإمام أحمد.

(2) أخرجه الترمذي، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

- والقرآن مصدرٌ لاستيعاب الكون ومعرفة السنن والقوانين، التي تحكم الحياة والأحياء: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام:11)، وكيفية الاتساق معها، والانسلاك في نظامها، وتسخيرها، ومغالبة أقدارها، كما بيَّن الإمام ابن القيم، رحمه الله، في «مدارج السالكين»، في ما معناه: «ليس المؤمن الذي يستسلم للقدر، وإنما المؤمن الحق، الذي يُغالب القدر بقدر أحبَّ إلى الله»: وكيف للمسلم أن يصل إلى درجة المغالبة دون أن يعرف الأقدار والسنن الحاكمة للحياة؟!

- والقرآن مصدرٌ للتشريع والأحكام: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ (الجاثية:18)، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة:48)؛

- والقرآن مصدرٌ للتعرف على قوانين السقوط والنهوض، والتعرف على العلل، التي تسببت في الانقراض الحضاري، كما بيَّن حامل «رسالة القرآن» للبشرية ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»(أخرجه مسلم)؛

- والقرآن هو مصدر الإجابة عن الأسئلة الكبرى والألغاز المحيرة للعقل البشري عن كيفية بدء الخلق، ومن ثمّ كيف ينشىء الله النشأة الآخرة.

- المنهج البياني:

والمنهج البياني، الذي اعتمده القرآن أداة للتوصيل وتحقيق القناعة، واستخدم له أعلى أنواع الأساليب وأبلغها وأكثرها تأثيراً، هو الذي يُوسع أُفق الإنسان، ويُخصِّب خياله، ويَرقى بقدرته على التجريد، ويغني لغته، ويمكنه من امتلاك القيم التعبيرية والإحاطة بدلالاتها، التي تستوعب خياله ومشاعره وقيمه الشعورية، وتؤمن تواصله مع الآخرين.

- العربية لسان الوحي ووعاء الإعجاز:

فالقرآن الكريم، بإعجازه البياني، الذي يُعتبر معجزته الكبرى الخالدة، كان وراء إغناء اللغة العربية وتطورها واتساعها وعالميتها والبلوغ بها آفاقاً وقدرات تعبيرية قادرة على استيعاب كل الحالات النفسية والعلمية والحضارية والإنسانية.

إن الإعجاز القرآني والتحدي البياني كان الدافع الكبير وراء شحذ الهمم للارتقاء باللغة لاستيعاب مدركات القرآن، ومحاكاة المعجزة الكبرى، والتعرف على وجوه الإعجاز المتعددة.

فالقرآن، في تشكيله للأمة وإقامته للحضارة، لم يُقم وزناً لفارق اللون والجنس والقوم والطبقة والجغرافيا؛ لأن ذلك جميعه فوارق قسرية ليست من صنع الإنسان وكسبه وعمله، ومن الظلم اعتمادها معياراً للكرامة والتمايز والتمييز؛ لكنه لم يتنازل بحال من الأحوال عن اللغة، باعتبارها وسيلة التواصل والاتصال وصياغة المشاعر وتشكيل عقل الأمة ووجدانها ونسيجها الذهني ووعاء أفكارها وتراثها وقيمها، التي تنطلق منه وتصب فيه؛ ذلك أنه مهما تعددت وسائل الاتصال والتواصل وتطورت فلا قيمة لها بدون اللغة؛ وتبقى اللغة هي الأبلغ والأيسر انسياباً والأكثر انتشاراً والأبقى أثراً.

لم يتنازل القرآن عن العربية، بل كانت اللغة العربية وعاء معجزته البيانية؛ لأن اللغة، أي لغة، كسببية تعليمية في الأساس، كما أشرنا، وبمقدور الإنسان تعلمها وإتقانها، وهي سبيل النقل والتواصل بين الأجيال والحفاظ على النسيج الفكري والثقافي وحماية ذاكرة الأمة وميراثها وتواصل أجيالها وتوارثهم الاجتماعي، وتمكين تلك الأجيال من قراءة ماضيهم وتجاربهم؛ فهي أشبه بالعجينة اللينة، التي يُساهم بها الجميع؛ وهي الخميرة الذهنية، التي تتفاعل مع الجميع؛ وهي العامل الأساس في بناء الثقافة وتشكيل الأمة، وتنظيم تفكيرها، حيث لا يُنكر علاقة التعبير بالتفكير.

- القرآن أغنى العربية وحماها:

ولعلنا نقول هنا: إن القرآن الكريم، الذي نزل على معهود العرب في الخطاب، كان مركز انطلاق اللغة إلى كل آفاق الحياة العلمية والعملية، وكان السبب في ارتقائها وتطورها وعالميتها؛ وقد تكون الدراسات في النحو والصرف والتوليد والاشتقاق والتعريب والبلاغة والبيان والبديع والمعاني وفقه اللغة وعلم القراءات، والمدى الذي بلغته، كلها تمحورت حول النص القرآني، ونشأت بسببه.

فالدراسات المعجمية، التي كان القدح المعلى فيها للغة العرب، حماية للنص القرآني، بمساحاتها ومناهجها وفضاءاتها اللغوية، ما تزال تعتبر من أعظم الإنجازات، التي لم تبلغها أي لغة أخرى.

يضاف إلى ذلك أن الرسم القرآني وَحَّد الحرف والرسم، وأطلق المواهب والقدرات للتفنن في رسمه، وجعل بإمكان أي طفل يعرف الأبجدية أن يقرأ في كتاب مضى عليه قرون، هذا إضافة إلى نقل القرآن مشافهة، وما ترتب

على ذلك من معرفة علم الأصوات وأحكام التجويد، الأمر الذي جعل بإمكاننا أن نقرأ القرآن كما قرأه صاحب الرسالة ﷺ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ (الزمر:28)، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:195)، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (طه:113).

- المنهج العرفاني:

وليس أقل من ذلك عطاءً وتأثيراً وهداية للتي هي أقوم المنهج العرفاني التأملي المنضبط بقواعد اللغة وضوابط الشريعة؛ وهنا لا بد أن نذكّر أن المنهج العرفاني هو المنهج المنضبط بقواعد اللغة وضوابط الشريعة؛ تلك القواعد والضوابط هي التي تحميه من الانحرافات الصوفية والتفاسير الباطنية والمواجد الذوقية، والتي أفضت، بدون ضوابط الشريعة، إلى فكرة الحلول ووحدة الوجود «ما في الجُبّة غير الله!»، «حدثني قلبي عن ربي!».

كما تأتي أهمية انضباط المنهج العرفاني بضوابط الشريعة والتزامه بقواعد اللغة ومعهود العرب في الخطاب، زمن النزول، للحيلولة دون تسرب الإصابات النفسية واللوثات العقلية والهياج والهوس الديني إلى الانحراف بفهم قيم الإسلام، الأمر الذي أدى في تاريخ التدين ويؤدي إلى ظهور نماذج وصور من التدين المغشوش والمنحرف، واستباحة المحرمات وإباحة بعض الممارسات، التي قد تصل إلى الشذوذ الجنسي، والعياذ بالله.

والمطلع على بعض ممارسات الفرق الصوفية المنحرفة يصيبه الذهول من الصور البوهيمية، التي تُمارس باسم الدين، وتستغل المساكين، والتي تحولت من مهمة تزكية النفس، التي تُعتبر المقصد الأساس للمنهج

العرفاني، إلى الانغماس في تدسيتها وشهواتها، ومن طهارة الفطرة إلى قبائح الغريزة، بعيداً عن مقاصد الدين وأخلاقه.

إن المنهج العرفاني المنضبط بقواعد اللغة وضوابط الشريعة يُعتبر من أهم الركائز التربوية، من حيث تأثيره في الارتقاء بالوجدان، ودقة الإحساس، وسلامة التذوق، وعمق التأثر، وسحر البيان، وتحريك الأحاسيس، وإيقاظ المشاعر، وإثارة العواطف، وأسر النفوس، وتأهيلها لإعادة صياغتها، وتوجيه حركتها واستجابتها.

لذلك، ليس غريباً ولا عجيباً أن يُنعت القرآنُ، من قِبل بلغاء العرب، بالسحر والشعر؛ وليس مُستهجناً أن يثير القلق والخوف، عند من لم يؤمن به، والرجاء والأمل وأن تقشعر من سماعه الجلود عند من يؤمن به: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ (الزمر:23).

وليس مُستغرباً على بعض العرب، وهم أهل البلاغة والبيان، أن يعجز عن الصمود أمام السماع لآيات التنزيل، ويحاول التشويش واللغط واللغو حتى لا يصل النص إلى أسماعه خوفاً أن يغير نفسه ويُعيد صياغته ويبدل قناعته، قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ (فصلت:26).

فإذا كان القرآن خطاب الله للإنسان، وكانت مكونات الإنسان ومداخل وعيه: العقل والقلب والعاطفة، وكانت الوسيلة لتحريك ذلك، والوصول إليه، اللغة، أداة التواصل والبيان، أمكننا القول:

إن القرآن الكريم، في السورة الواحدة، وفي الصفحة الواحدة من

السورة، قد يستخدم المنهج البرهاني والمنهج العرفاني والمنهج البياني، لتتضافر جميعاً فتستوفي بذلك استحقاقات إيقاظ الوعي، وتوفير القناعة، وتحصيل العبرة، وتحريك العواطف والمشاعر، وبناء الوجدان، وتحقيق الإيمان، الذي هو ثمرة لذلك جميعه، وبذلك تميز أسلوب القرآن وبناء نظامه، ولو لم نستطع الإدراك الظاهر والسريع للوحدة الموضوعية بين السور والآيات، حيث تتمحور جميعها وبطرائق ووسائل متنوعة لتحقق المقصد الواحد، الذي تتفرع عنه المقاصد القرآنية جميعاً، وهو الإيمان.

- تنوع محل الخطاب:

والمتأمل في العطاء القرآني، في مجال العقل والمنهج البرهاني، يرى أن الإسلام ارتقى بالعقل إلى أعلى الدرجات الممكنة، واعتمده وسيلة للاجتهاد وتوليد الأحكام الشرعية، أي جعله مصدراً للتشريع، كما ناط به التجديد وتنزيل الأحكام الشرعية على واقع الناس، واعتبره أساس التكليف ودليل الوحي، وأطلقه في النظر للكون والإنسان والحياة، وجعله سبيل كرامة الإنسان، ووسيلة اختياره، ومحور إيمانه وحريته، وناط به ملكة التعلم والكسب المعرفي، وحرضه على الحضور الدائم، وفحص الأشياء، والحكم عليها، من خلال الأدلة والبراهين والخبرة ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:36)، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر: 14)، استنفره واستفزه.

هذا العطاء العقلي، وهذا البناء الفكري الكبير، في مجال الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وما تولد عنه من الترسانة الفكرية القرآنية ،التي حمت الثقافة الإسلامية من تغول (الآخر)، الأمر الذي قد يُظنّ معه أن المنهج البرهاني، دون سواه، هو الذي اعتمده القرآن، ودعا إليه، هو معجزة القرآن، وأن معجزة القرآن عقلية!

وليس أمر المنهج البياني، الذي يشكل الوعاء والأداة والوسيلة واللسان والقيم التعبيرية للمنهج البرهاني هو أقل شأناً؛ ذلك أن المعجزة الأساس تتمحور حول المنهج البياني في القرآن، وأن القرآن في الأصل هو معجزة بيانية؛ إن الشأن الذي بلغته لغة العرب ببيانها وتطورها، كثمرة لعطاء القرآن، والمؤلفات الهائلة حول الإعجاز وأساس البلاغة ودلالات الألفاظ وعلم القراءات والأصوات وفقه اللغة وعلم مفردات القرآن وتصميم المعاجم ومناهج التفسير، وامتداد ذلك إلى الشعوب الإسلامية بتعلمها اللسان العربي، ونبوغها فيه، وقراءة لغاتها وكتابتها بحرفه وصوته لا يضاهيه بيان؛ حيث لا يُنكر اليوم دور الإعلام والبيان في ميدان التنافس الحضاري، حتى يُظن معه أن المنهج البياني، دون سواه، كان معتمد القرآن!

وأمر العطاء العرفاني في القرآن، من تعمير القلب، وتزكية النفس، وبناء الأخلاق، وتأسيس وتأصيل القيم التربوية، وبيان قيم السلوك والزهد والرقائق، وإعادة نسيج العلاقات وبنائها على الأخوة والمحبة والعفو والإيثار والرحمة والتقوى، والتحذير من أمراض النفوس وتدسيتها بالمعاصي، يكاد يستغرق مساحات الكتاب التعبيرية، ويُشكل مقصده الأساس، ذلك أن ولادة الإنسان الجديد، بكل مكوناته، هو الغاية لرسالة القرآن.. ولا يتسع المجال هنا للإتيان على الإنتاج المعرفي والتربوي الكبير، الذي يُعتقد معه أن المنهج العرفاني هو المنهج الأساس، الذي اعتمده القرآن الكريم!

إن التنوع والاختلاف من سنن الله في الحياة والاجتماع البشري، ليكون هذا التنوع سبيلاً للتكامل والتعارف، والمدافعة التي تبعث الفاعلية وتحقق التنمية وتبني الحضارة وتقيم العمران، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ

عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:13)، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:118- 119)؛ وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج:40).

فمن الأمم من تتفوق بلغتها وبلاغتها ولسانها وبيانها؛ وأمم أخرى تتفوق بنزوعها إلى السمو الروحي والرقي النفسي، وتتمتع بالمشاعر الفياضة والعواطف الغامرة؛ وتأنس بقيم ومبادئ ومسالك العبادات والرياضات الروحية والنفسية والمعرفية؛ وأمم مولعة بالنظرات الفكرية والأمور الفلسفية، والبراهين العقلية، واعتماد العقل وسيلة المعرفة وأساس القناعة والإجابة عن الأسئلة الكبرى في حياة الإنسان.

وليس ذلك على مستوى الأمم وإنما هذا التنوع لا ينكر على مستوى الأفراد أيضاً، ذلك أن الفوارق الفردية ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم:30)، هي من المسلمات العلمية والواقعية، بل نستطيع أن نقول: إن الإنسان نفسه يمر بحالات قد تتعاظم معها عواطفه ومشاعره، كما يمر بحالات يتعاظم فيها تفكيره وتأمله ورغبته في تتبع الأدلة والبراهين العقلية، ويعتبرها السبيل إلى الوصول إلى الحقيقة والقناعة والإيمان.

وليس أمر النبوغ والفصاحة والتوجه صوب الترقي اللغوي والتأثر البياني بأقل من ذلك، وتلك هي كينونة الإنسان.

لذلك كله كان لا بد للخطاب القرآني، بمناهجه المتعددة، وأساليبه المتنوعة، ومحله الفرد والمجتمع والأمة والناس جميعاً، أن يحيط بذلك كله، وأن تتعدد مناهجه وأساليبه، من برهاني وعرفاني وبياني، فيخاطب العقل والقلب والعاطفة ببيان فاعل ومؤثر، لتحقيق غرضه في هداية الإنسان وبلوغ

مقاصده في العالمية، التي تعني صلاحيته لتحقيق صلاح الأمم والشعوب.

وعلى الجملة، يمكن القول: إن المنهج البرهاني بنى العقل، ودفعه للاطلاع بوظيفته؛ والمنهج العرفاني عمّر القلب وطهره من الأمراض النفسية؛ والمنهج البياني أطلق اللسان في هذا الفضاء الكبير، ليعبر عن ذلك كله، فيوصل رسالة القرآن إلى العقول والقلوب، بحيث يتم التغيير، وتتم الولادة الجديدة لإنسان القرآن المتميز المثير للاقتداء، بفكره وسلوكه وبيانه.

- خلود العطاء:

إن الهداية للتي هي أقوم عطاء خالد على الزمن، وآفاق ممتدة في شعب الحياة وجوانبها، بكل تنوعاتها وفضاءاتها، على مستوى العقيدة، والسياسة، والتربية، والاقتصاد، والاجتماع، والتفكير، والتنهيج، ورحلة البحث والكشف العلمي، يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف:109)، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان:27).

عقيدة التوحيد

المرتكز الأساس لرسالة القرآن

إن «رسالة القرآن» انطلقت من أسس ومبادئ وقيم وأهداف شكَّلت المرتكزات الأساس أو المقومات الأساس لبلوغها مقاصدها.

- عقيدة التوحيد تحرير للإنسان:

وهي المحور الرئيس لرسالة القرآن؛ وقد لا يتسع المجال للحديث عن دور «رسالة القرآن» في تحرير الإنسان، محور الرسالة ومحل تنزيلها، من التسلط والعبودية والشرك السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وبناء كرامته واسترداد إنسانيته، وهو المقصد الأساس، ذلك أن البشرية حتى اليوم، وبعد أربعة عشرة قرناً منذ بدء النزول، تحبو للوصول إلى التحرر من التسلط والتحرير من الظلم.

فعقيدة التوحيد، محور الرسالة القرآنية، هي، في حقيقتها، خلاصٌ للإنسان من ألوهيات البشر، ومساواة بين بني البشر، وإلغاءٌ للتمييز بكل أنواعه، واسترداد لإنسانية الإنسان وكرامته، وفكٌ لقيود الإرهاب والإرعاب، التي كانت تُمارس باسم الدين، أو من قِبل الكهنة والمتحدثين باسم الله؛ فالجميع في قيم القرآن يتصلون ويتواصلون مباشرة مع الله، دون وساطة.

فالوحدانية تحرير وخلاص ونسخ للآلهة وإلغاء للجبت والطاغوت، وجعل الناس، جميعهم، متساوين وكأنهم على طاولة مستديرة، لا فرق بينهم؛

فالكرامة هنا منوطة بالكسب ومرتكزة على الاختيار: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:13)، وليس بالفوارق القسرية، اللون، أو الجنس، أو القوم، أو النسب...الخ.

- فك الارتباط بين الألوهية والحكم:

ففي المجال السياسي، وهو الموقع الأخطر، نرى أن «رسالة القرآن» نزعت، لأول مرة في التاريخ السياسي، صفة الألوهية والعصمة عن الحاكم، وأكدت بشريته ومسؤوليته.. فلأول مرة في حياة البشرية، كثمرة لرسالة القرآن وهديه، ينفصل الحكم عن الألوهية، بما في ذلك النبوة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (الكهف:110)، «**قَدْ وُلِّيْتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فإنْ أحْسَنْتُ فأَعِيْنونِي، وإنْ أسأْتُ فقوِّمونِي... أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ ورسوله، فإنْ عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم**»(1)؛ فلا قدسية ولا عصمة لأحدٍ، ولا حاكم ولا كاهن يتحدث باسم الله.

لقد أصَّلت «رسالة القرآن» لأسس الحكم الرشيد، فجعلت الشورى في اختيار الحاكم فرعاً لعقيدة التوحيد ودِيناً من الدين، يعدل عبادة الصلاة، وأمانةً من الخطورة بمكان التفريط فيها؛ كما أن الشورى في إدارة شؤون الحكم تكليف شرعي وعبادة من العبادات، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى:38)، وقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران:159)، وجعلت العدل مرتكز الحكم الرشيد ووظيفة الأمة المسلمة.

---

(1) من خطبة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، يوم اختياره أول خليفة للمسلمين.

هذه القيمة الكبرى، في مجال الحكم، التي أكدها القرآن الكريم، وبينتها السنة، وجسدتها السيرة، كسرت احتكار الحكم وادعاء عصمة الحاكم والاستئثار بالرأي والاستبداد بالرعية، فكانت الهداية للتي هي أقوم، في المجال السياسي.

ولا يفوتنا هنا أن نذْكُر ونُذَكِّر بأن هذه القيم، في المجال السياسي، إنما نزلت وتجلت وتجسدت في واقعٍ قبل أربعة عشر قرناً عندما كان الناس ما يزالون إقطاعات أو قطعاناً بشرية للحاكم، ولا تزال تلك الهداية، إلى اليوم، أحد المطالب الكبرى والتطلعات الغائبة، التي يسعى إليها الناس، وقد يحصلون عليها أو على بعضها، حيث تستمر سنن المدافعة وجدلية الحاكم والمحكوم والمواطن والسلطة، حتى يوم القيامة.

- تحقيق السلم الأهلي:

كما بيّن القرآن القيم الضابطة والمنظمة لقيم السلم والحرب، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾(الأنفال:61)، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾(البقرة:208)، فاعتبر شيوع وإشاعة السلم والأمن والتعارف والتعاون هو الأصل في العلاقات الدولية، وأن الحرب إنما هي استثناء شُرعت للحماية من الاعتداء أو لرد الاعتداء، يقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:190)، ويقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾(التوبة:6).

كما شرع القرآن القيم، التي تنظم العلاقة بـ(الآخر)، ودعا إلى الحوار معه، فقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾(الممتحنة:8)، وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾(آل عمران:64)، وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾(العنكبوت:46)؛ وجعل الإيمان، الذي يُعتبر من أعلى أنواع الحقوق الإنسانية، ثمرة للحرية والاختيار، وكان شعاره الكبير، ولا يزال: ﴿لَا إِكْرَاهَ﴾ (البقرة:256).

- وحدة الأصل البشري:

ولعل «رسالة القرآن» في المجال الاجتماعي، حيث التصالح مع «الذات» و«الآخر» وتحقيق السلم المدني تعتبر دليلاً هادياً وعطاءً خالداً؛ فأفراد الإنسانية، جميعهم، منحدرون من أصل واحد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾(النساء:1)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:13)؛ إضافة إلى أن تلك الرسالة القرآنية وضعت تشريعات دقيقة ومحكمة لبناء الأسرة وتنميتها وحمايتها، واعتبارها المحضن الحقيقي للمودة والرحمة والسكينة ومحلاً للتكافل والتوارث وصلات الرحم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:21)، كما بينت ونظمت الحقوق والواجبات بين أفرادها، وحرّمت كل ما يخدش طهارة الأسرة وتماسكها، وجعلت الأسرة ممتدة متكافلة متجاوزة الأب والأم والأولاد إلى الجد والجدة

وكل الأرحام والعصبات، وبذلك شكلت «رسالة القرآن» نسيجاً اجتماعياً متيناً مترابطاً متواصلاً، كما نظمت علاقات وحقوق الجوار وواجباتهم.

- الأمن الاقتصادي:

أما في المجال الاقتصادي، وهو مناط حياة الإنسان، وتنظيم كسبه، وتأمين حاجاته الأصلية، والحد من طغيانه وجشعه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق:6- 7)، ﴿... وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(العاديات:8)، فإن القيم التي جاء بها القرآن في مجال تحريم الربا والاحتكار والاستغلال وتحريم الكنز والغش والتبذير والإسراف والاستئثار بالمال، أو بتعبير آخر: ما جاء به القرآن من قيم تبيِّن وسائل الكسب المشروع ووسائل الإنفاق المشروع ووسائل الكسب غير المشروع ووسائل الإنفاق غير المشروع، وتنظم العقود في الحقوق وتربطها بأصل الدين ومقاصده، وتضبطها بالتشريعات الملزمة، ضمنت الأمن الغذائي والاقتصادي وعدم الاستغلال، إضافة إلى تشريعات الملكية الجماعية (المرافق ذات النفع العام)، التي لا يجوز للأفراد الحق في تملكها أو التصرف فيها وحجب نفعها عن أبناء المجتمع، حيث الْمُسْلِمُون «**شُرَكَاءُ فِي ثَلاثٍ: فِي الْكَلإِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ**»(1).

كما بيَّن حامل الرسالة القرآنية ﷺ أنصبة التوارث، وموارد التكافل الاجتماعي، التي تحقق التوازن الاقتصادي، وتحُول دون التفاوت الطبقي، وتحمي المجتمع من الأزمات الاقتصادية والاختناقات المالية والأحقاد

(1) أخرجه أبو داود، وصححه الألباني في إرواء الغليل.

الطبقية، حيث كل الشواهد تدلل على أن المخرج من التأزم الاقتصادي هو الالتزام بقيم الهداية ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

- حفظ الحقوق والوفاء بالعقود:

أما في مجال حفظ الحقوق وتوثيقها، والالتزام بالعقود والوفاء بها، فالمساحات التعبيرية التي شغلتها من آي القرآن تؤكد أهميتها وضرورة ضبطها وتوثيقها وحمايتها، لما لذلك من أثر على اطمئنان الناس وأمنهم، وحسبنا أن نقول: إن أطول آية في القرآن جاءت في توثيق الحقوق والديون والمعاملات المالية، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكْتُبُوهُۚ...﴾ (البقرة:282)، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ (المائدة:1).

- تحقيق التنمية الإنسانية:

أما في المجال التربوي، ومحله الإنسان، فحسبنا أن نقول: إن الغاية من الرسالة القرآنية كلها، بمختلف شعبها وتعاليمها وأحكامها، هو تطهير وتزكية النفس وحمايتها من التدسية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:9- 10)؛ وإلحاق الرحمة بالعالمين، واستنقاذهم من التيه والضلال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةٗ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:107)؛ وإن مهمة حامل الرسالة ﷺ إلى الناس: تلاوة الكتاب، بكل عطائه وخلوده التربوي، ونقل تعاليمه إلى الناس، وتزكيتهم؛ التزكية، التي تعني: الطهارة لنفس الإنسان وسلوكه، والتنمية والارتقاء بخصائصه وصفاته، وتمليكه المهارات المتنوعة، وتربيته على التوسط والاعتدال، وإكسابه الحكمة،

وهي وضع الأمور بمواضعها ووزنها بموازينها بلا إفراط ولا تفريط: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ (البقرة:269)؛ واعتبار التربية والتعليم مفتاح التدين وغايته، فحامل الرسالة ﷺ يقول: «...**إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا**»(1)، ويحدد الله سبحانه وتعالى مهمة صاحب الرسالة بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾(الجمعة:2)، وركيزة ذلك، كما أسلفنا، عقيدة التوحيد، التي تمحورت حولها وانبثقت منها هذه الرؤى الحضارية والتربوية والثقافية كلها، حيث فيها خلاص الإنسان، وانعتاقه، وتنمية قدراته، وبناء شخصيته الاستقلالية.

- نماذج تربوية:

لقد قدمت «رسالة القرآن»، في إطار المجال التربوي وبيان أسس الروابط والعلاقات الأسرية، نماذج من كل المواقع ومختلف الحالات:

- قدّمت لقمان، عليه السلام، أنموذجاً للأدب في تربية وتنمية ولده في مجال العقيدة والعبادة والسلوك واكتساب الحكمة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ

(1) أخرجه ابن ماجه.

مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (لقمان:13- 19).

- وقدّمت أنموذجاً لعلاقة الأب المؤمن بالابن الكافر ومدى تحكم عاطفة الأبوة والصراع الذي يعيشه الإنسان، البشر، بين عقيدته وعاطفته، بين مقتضيات العقيدة وجواذب العاطفة الأبوية بنوح، عليه السلام، وابنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(هود42- 47).

- كما قدّمت أنموذجاً للابن المؤمن وبيان حرقته وحرصه على هداية أبيه بعاطفة من البنوة الجياشة ورقتها وحسن أدبها بإبراهيم، عليه السلام، وأبيه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ (مريم:41- 47).

- وليست تلك النماذج فقط، فالعلاقات والروابط الزوجية كان لها نماذج أيضاً في «رسالة القرآن» للناس، فأنموذج المرأة المؤمنة والرجل الكافر في بيت واحد: امرأة فرعون: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التحريم:11)؛ والرجل المؤمن والزوجة الكافرة: امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ (التحريم:10).

- كما عرضت «رسالة القرآن» لمسؤولية الرجل المؤمن عن هداية قومه وإرشادهم إلى سبيل السلام: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ

أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ (غافر: 38)؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (غافر:30- 31).

وهكذا تتكرر النماذج في مجالات الحياة كلها، لتكون دليل التعامل والارتقاء والهداية للتي هي أقوم.

- التبصير بالفقه الحضاري:

وقد يكون في مقدمة ما قَصَدت إليه «رسالة القرآن» في حياة الأمم والأخذ بيدهم ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾: تبصيرهم بالفقه الحضاري، وبيان عوامل سقوط ونهوض الأمم، وبناء الوعي، وإدراك وسائل التغيير وأسباب التأثير، والإتيان بشواهد لذلك وأدلة ميدانية من تاريخ الأمم والشعوب في الأزمان والأماكن المختلفة، لتدلل على أن هذه السنن مضطردة، لا تحابي أحداً ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾(فاطر:43).

ولعل الحديث عن علل التدين، والتحذير منها، وخطورة السقوط فيها، تؤكده المساحات التعبيرية الكبيرة، وبأساليب متعددة، وكيف أن تلك العلل المُتوارثة كانت ولا تزال دابة الأرض، التي تأكل منسأة الحضارة على مدار التاريخ، وأنها إذا تسللت إلى أمة كانت سبباً في انقراضها وهلاكها: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ**»، وأن إيراد الشواهد المتعددة والنتائج المدمرة لانتقال علل التدين، كان ولا يزال ضرورياً لأمة «رسالة القرآن» حتى تأخذ

حذرها وتكون على بيِّنة من أمرها؛ ولقد قدمت «رسالة القرآن» تلك النماذج من أكثر من موقع من مواقع الحياة:

فمن الموقع السياسي، قدم القرآن نماذج للطاغوت المتأله والظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي، وكان فرعون الأنموذج المتصاعد له: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:4)، ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات:24)، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾(القصص:38).

ومن الموقع الاقتصادي، كان الأنموذج قارون: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ

﴿٨٣﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:76- 83).

وفي المجال الديني، جاء الأنموذج من الكهانات الدينية وتحكّمها بمصائر البشر وابتزازها لأموالهم: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:34)، وتوظيفها الدين لخدمة الطاغوت، وتحريف النصوص الدينية وكتمانها لشراء الدنيا بالدين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ (البقرة: 174).

كل ذلك وغيره كثير إنما قصَدَت إلى إيضاحه «رسالة القرآن» لتأخذ أمة هذه الرسالة حذرها، وتكون على بيِّنة من أمرها في كيفية التعاطي والتعامل مع هذه القوانين والسنن الاجتماعية.

إن «رسالة القرآن» أوضحت ونبهت إلى هذه القوانين، قوانين الأنفس، التي تحكم الحياة والأحياء، والعلل التي يمكن أن تلحق بها، ليعرف المسلم مسارات الحياة بكل تشعباتها، ويسعى إلى استيعابها وحسن تسخيرها، فلا يغفل عنها ولا يرتطم بها، وهي في حقيقتها لا تقل اطراداً وانضباطاً عن السنن والقوانين الكونية المادية وإن كانت ظروفها وشروطها خفية عصية في بعض الأحيان عن الإدراك، وموانعها أكثر تعقيداً وخفاءً وأبعد أمداً في كثير من الأحيان.

- التاريخ مصدر معرفة:

ولقد جعلت «رسالة القرآن» التاريخ العام المديد للأمم والشعوب والحضارات، وليس فقط الاقتصار على تاريخ النبوة، هو مصدر المعرفة لإدراك هذه السنن، واستشعار مدى فاعليتها واطرادها، وبذلك أضافت الشاهد والعطاء التاريخي لتأكيد التجربة الذاتية: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:137- 138).

وهنا تبرز أهمية دور التاريخ في قراءة الواقع، وتفسير الحال، ورؤية المآل، وبيان أبعاد «رسالة القرآن» ومداها في واقع الناس وعمقها في تاريخ الحضارة، حيث التاريخ مختبر التجارب البشرية.

من أبعاد رسالة القرآن

«رسالة القرآن» الكريم محلها الإنسان، الذي استخلفه الله تعالى في الأرض ليقوم بمهمة الاستخلاف وإقامة العمران وبناء الحضارة الأنموذج، التي تثير الاقتداء، وزوده بدليل التعامل مع الحياة والأحياء، وناط به مهمة تحقيق العدل والأمن، وأقامه شهيداً على الناس لإلحاق الرحمة بهم.

- بناء أمة الفكرة:

الدعوة إلى عقيدة التوحيد، التي تُشكل المحور الأساس لأمة الفكرة وتحقيق المساواة بين أفرادها، وبيان أثر هذه العقيدة في استرداد إنسانية الإنسان وكرامته، وإيقاف التسلط، ونسخ الألوهية، وتحقيق المساواة؛ تلك الفكرة أو الركيزة، التي تمحورت حولها الأنشطة الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وكانت وراء بناء النسيج الذهني والثقافي والاجتماعي والسياسي للأمة، حيث تشكلت من خلالها أول أمة ودولة ومجتمع على هذا النمط، وتحقق وجود المواطن العالمي في أمة الإسلام، مهما بعُدت به الشقة، فالمؤمنون إخوة، والمؤمنون أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات:10)، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾(الأنبياء:92).

ونستطيع القول: إن الأمة المسلمة، دون سائر الأمم، تشكّلت من خلال كتاب «القرآن»، وانطلق سلوكها وخلقها من خلال المحراب (المسجد)، وعاء العبادة والتلاوة واجتماع الأمة؛ والأمة، التي نتحدث عنها هنا، غير الدولة، بالمفهوم القانوني والسياسي والواقعي، ولا نرى تضاداً ولا تعارضاً بين أن يكون الإنسان مواطناً عالمياً في أمة الإسلام وفي الوقت ذاته يكون

مواطناً في أية دولة، مهما كان دينها ودستورها، فالأمة باقية، والدولة تدول وتُتداول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(آل عمران:140).

لقد تشكلت الأمة من خلال كتاب، كما أسلفنا، من خلال فكرة وعقيدة ورسالة، في الوقت الذي كانت عوامل تشكيل الأمم تحكمها الأرض واللون والجنس والقوم والجغرافيا...الخ من الفوارق القسرية؛ فالبعد الحضاري لأمة الفكرة فضاءٌ واسع، يتضح من خلال المقارنة بين أمة تجمعها رسالة وفكرة إنسانية عالمية اختيارية، وأمة تحكمها أسوار اللون والجنس والقوم.

- ميزان الكرامة:

ف«رسالة القرآن» بعد أن بنت الفرد واستنقذته من الضلال، شكّلت من المؤمنين بها خير أمة أُخرجت للناس، وجعلت ميدان التنافس والارتقاء وميزان الكرامة التقوى والعمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:13)، وفي ذلك ما فيه من المساواة، التي هي روح الحضارة وصمام أمنها وامتدادها، وتأصيل مبدأ تكافؤ الفرص، واسترداد إنسانية الإنسان وكرامته، وبناء الجسور الاجتماعية، وإخراج أمة الوسط (العدل) للناس، تحمل رسالة الخير وتحقق الشهود الحضاري: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران:110)، تبدأ بتطهير «الذات» من أدران الشرك وتداعياته، وتطهير المجتمع من الفساد: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:143).. فالوسطية المنوطة بالأمة تعني إقامة موازين العدل وتحقيقه في الحياة، وبيانه للناس، وإقناعهم بها، والتزامهم باستحقاقاته، والشهادة عليهم، وتقويم إنجازهم الحضاري.

وما أظن كتاباً في الدنيا نال إجماعاً، بالمطلق، وإن اختُلف في فهمه وتفسيره، وهذا شيء طبعي، فيما وراء القرآن إلا القرآن، وأن هذه القرون المتطاولة، على الرغم من تطور العلوم والمعارف والتقدم الهائل في العلوم الاجتماعية، لم تُسجل على نصه وأفكاره إصابة واحدة ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت:42)، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:82).

- عصمة عموم الأمة:

والقرآن، برسالته إلى الناس، لم يقتصر على تشكيل أمة الفكرة، وإنما ضمن خلودها وامتدادها، وذلك بوضع الأسس والضوابط والتعاليم، التي تمنعها من الزلل والانحراف، يقول صاحب الرسالة ﷺ: «**إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ**»(1)، وشكَّل لها درع الصمود والوقاية والحماية في أيام الأزمات والاستعمار والتخلف والتراجع الحضاري، كما كان لها الدافع والباعث، وأمكنها من القدرة على التجاوز والنهوض، حيث بصَّرها بعوامل النهوض والتغيير، وهذا يدل، من بعض الوجوه، أو من كل الوجوه، على سمة الخلود، التي تعني القدرة على الإنتاج، في كل زمان ومكان، بما يمتلك من الإمكان الحضاري، فكان القرآن ولا يزال هو الملاذ، الذي تلجأ إليه الأمة في الأزمات، وتهتدي به أو تنطلق منه في محاولات النهوض.

ويمكننا القول بعد هذه القرون المتطاولة: إن القرآن هو أعظم ما تمتلك الأمة المسلمة من الإمكان الحضاري، حسبها أنها تمتلك النص السماوي السليم والأخير، الذي صوَّب النصوص الدينية السابقة بعد أن اعترف بأصولها، وشكّل الأمة وحقق حمايتها، وهو الذي يشكل لها المشروعية

(1) أخرجه ابن ماجه.

العليا، والرافعة الحقيقية للدفع الحضاري؛ واستقراء التاريخ يقول لنا: إن الأمة كلما رجعت للقرآن عزَّت ونهضت وانتصرت وقامت من كبوتها، وكلما انسلخت وتراخت وتساهلت تخلَّفت وتراجعت ونكصت على أعقابها.

وكم هو اليوم حال الأمة في التعامل مع القرآن محزنٌ، الذي انتهى إلى تلاوات وتلاوات وإعادة التلاوة، بعيداً عن التدبر والاعتبار وامتلاك أهلية التدبير والنظر وتحقيق ملكة الفرقان والتمييز بين الأمور وترجمة مقاصده وتجسيدها في الواقع الاجتماعي.

- وراثة النبوة والبعث الحضاري:

إن القرآن، الذي يُحدث التغيير، ويحقق النهوض، ويبني الحضارة، ويقيم الأمة الشاهدة على الناس، هو القرآن الذي يزكي النفس، وينقِّي القلب، ويحرك المشاعر، ويلهب العواطف، ويُوقظ الوعي، ويُلهم العقل، وليس القرآن الذي تحول إلى المقابر وأسِرّة المرضى واقتصرت تلاوته على الموتى والجنائز.

وإذا كان نهوض المجتمع مرهون إلى حدٍ بعيد بتوفير ظروف وشروط ميلاده الأول، كما يرى علماء الحضارة والعلوم الاجتماعية والإنسانية، وأن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلُح به أولها، كما قال الإمام مالك، رحمه الله، أدركنا دور القرآن في عملية النهوض الحضاري ومعاودة إخراج الأمة.

إن «رسالة القرآن»، خاتمة الرسالات، التي انتهت إليها النبوة، بكل تجاربها وعطائها وإصابات أتباعها وعلل سقوطهم؛ انتهت إليها أصول الرسالات السماوية جميعاً، وتجربتها التاريخية الحضارية، مؤهلة لمعاودة النهوض وإخراج الأمة من جديد.. فهي خلاصة النبوة، ووريث تجاربها وتعاليمها، لذلك فالمؤمن بها مؤمن بكل النبوات، وتعاليمها، وعبرها،

فجذور إنسان القرآن ممتدة إلى أعماق التاريخ، إلى النشأة الأولى، ومتطاولة حتى نهاية الحياة، عندما يُنشىء الله النشأة الآخرة.

هذا الميراث الضخم، وهذا الإيمان بكل النبوات، يمنح المسلم الحياة الطويلة، ويجعله فرداً في قافلة الحضارة والأمة الممتدة الواحدة، ويمنحه الفقه الحضاري: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (المؤمنون:52)، وليس المقصود هنا طبعاً أمة الرسالة الخاتمة، وهي أحد المقاصد، وإنما أمة النبوة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة:285)، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: 48)، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى:13).

فالإيمان بأن القرآن يصدّق الذي بين يديه ويرث النبوة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (فاطر:32)، يقود إلى الانفتاح والتصالح والحوار به مع الآخرين على طريق تعاليم النبوة وعدم المواجهة والتصادم؛ لأن دين الله واحد؛ ذلك أن القرآن حفظ أصول الديانات السابقة من الاندثار والبلى، وحقق إنسانية الرسالة القرآنية وعالمية النبوة وتاريخيتها وأهّلها لقيادة الناس إلى نهاية الحياة؛ وبذلك فالقرآن سِجِلُّ النبوة الأمين، والمؤمن به مؤمن بكل النبوات، كما أسلفنا، مُثابٌ على ذلك بعظيم الأجر؛ ولعل ذلك مكّن من تحقيق الشهادة على الناس، من بعض الوجوه ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:143).

تصويب الرؤى الدينية

وليس ذلك فقط، وإنما كانت «رسالة القرآن» هي السبيل لتصويب الرؤى الدينية السابقة، والاحتفاظ بأصولها، وبيان الإصابات، التي لحقت بالنص الديني، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة: 48)، فالتصديق للأصول، والهيمنة ،التي تعني الرقابة والشهادة وكشف التحريف والتبديل وبيان مواطن الإصابة، من وظائف ومقاصد «رسالة القرآن».

- الهيمنة ومنهج النقل العلمي:

فـ«رسالة القرآن» بذلك مزدوجة الهدف: فهي أولاً تهدي إلى بناء إنسان النبوة الخاتمة الجديد؛ الذي هو بإيمانه برسالة القرآن تتحقق له ولادة طبيعية للنبوات جميعاً؛ وثانياً مهمة تصويب ما لحق بالنبوة السابقة، وتصويب رؤاها، كما أسلفنا.. فالشاهد والرقيب والمهيمن والكاشف والمعيار والمصوِّب والمبين... هي الأبعاد الحقيقية لقوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

ولقد تحققت لـ«رسالة القرآن» هذه المعيارية وهذه الهيمنة بما يمتلك من مجموعة الخصائص والمقومات، التي جعلته مؤهلاً لهذه المهمة، لعل في مقدمتها أنه النص السماوي الوحيد، الذي ورد ونُقل بطريق علمي صحيح يفيد علم اليقين، فقد ورد بالتواتر، وهو ما يرويه الجمع عن الجمع، الذي يحيل العقل تواطؤهم على الكذب.

ومن مظاهر الصحة والحفظ والنقل بطريق علمي أن الرسول ﷺ منذ خطوات النزول الأولى اتخذ كُتَّاباً للوحي، متخصصين به، لا يكتبون غيره، حتى الحديث النبوي، حيث نهى الرسول ﷺ كتابة غير القرآن، فقال: «**لا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ**»(1).

وليس ذلك فقط، وإنما كان النقل عن طريق الحفظ والمشافهة قرين الكتابة والنقل، فوصل القرآن إلى جميع الأجيال مكتوباً فهو كتاب، ووصل محفوظاً مقروءاً فهو قرآن؛ هذا إضافة إلى التكرار والمراجعة المستمرة في الصلوات الجهرية، الفردية والجماعية، وأداء المحاريب، وما كان من المدارسة المستمرة في رمضان، بين جبريل الأمين على الوحي وبين رسول الله ﷺ متلقي الوحي، فقد « **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، إِنَّ جِبْرِيلَ، عَلَيْهِ السَّلام، كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ، حَتَّى يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ**»(2).

هذه المدارسة والمراجعة، إلى جانب كل وسائل الحفظ والنقل العلمي، ضمنت للنص القرآني السلامة والصواب، في الوقت الذي تفتقر فيه النصوص السماوية السابقة لأبسط قواعد النقل والتوثيق، مما أوقع بعضها في كثير من التناقض والاضطراب، الأمر الذي دعا الكثير من العلماء والمدققين للقول: إن القرآن، بما يمتلك من الخصائص والصفات الوثائقية،

---

(1) أخرجه مسلم.

(2) أخرجه مسلم.

هو المرجع الوثائقي والمصدر المعرفي الوحيد لهذه الأديان، أو هذه الكتب، فهو أقدم وثيقة تاريخية وردت بطريق علمي صحيح.

هذا من الجانب الوثائقي العلمي، أما من حيث الجانب العقدي الديني، الذي جاء الجانب العلمي الوثائقي ثمرة له، فإن الله سبحانه وتعالى تعهد بحفظ كتاب الرسالة الخاتمة، الذي انتهت إليه النبوات، يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:9)، في الوقت الذي أوكل حفظ الكتب السابقة لأهلها، فقال تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ (المائدة:44).

هذا الحفظ، الذي تعهد به الله سبحانه وتعالى، إنما تحقق من خلال عزمات البشر وفعلهم، ابتداءً من حياة الرسول ﷺ باتخاذ كُتّاب وحفظة للوحي، ومروراً بفعل سيدنا عمر، رضي الله عنه، جمع القرآن بعد أن استحر القتل بالقراء، في معركة اليمامة، عندما خاف ضياع القرآن، حيث لم يخطر بباله أنه يُخالف قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، أو ببال أحد أن يُنكر عليه فعله، متوهماً أن ذلك مخالفةً شرعية، ويطرح على نفسه أو غيره السؤال التالي: كيف تخاف على ضياع القرآن وقد تكفل الله بحفظه؟ كحال فهم إنسان التخلف والتراجع الحضاري(!) والأمر ذاته تكرر عندما أمر سيدنا عثمان، رضي الله عنه، بنسخه وتوزيعه على الأمصار، كنسخة معتمدة رسمية، وما تتابع من أدوات ووسائل الحفظ والنقل، التي ما تزال مستمرة إلى الآن.

- صحة النص القرآني:

وقضية أخرى، هي: أن من لوازم الخاتمية صحة النص ووصوله واستمراره سليماً، إلى يوم القيامة، لتوقف التصويب من السماء، إذ لايمكن عقلاً ولا ديناً ولا منطقاً أن يُخاطَب الناس ويحمَّلوا مسؤولية التكليف ويُحاسبوا بنصوص منحولة ومحرّفة وغير صحيحة، ومن ثمّ تتم محاسبتهم على أعمالهم في ضوئها ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت:42)، «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ**»(1).

- التجديد من لوازم الخاتمية:

كما أن من لوازم الخاتمية: الهيمنة والخلود والتجرد عن حدود الزمان والمكان، وإمكانية التجريد عن ظرف الزمان والمكان، والقدرة على التوليد للرؤى والأحكام، في ضوء قيم القرآن وسنة صاحب الرسالة ﷺ، والبيان في كل زمان ومكان، إضافة إلى القدرة على العطاء المستمر والإنتاج في كل زمان ومكان.

ولعل من لوازم الخاتمية أيضاً: التجديد للمعطيات والاجتهادات المنطلقة من قيم القرآن ورسالته وإزالة ما يمكن أن يلحق بها من تراكم التقاليد والعادات والفهوم المعوجة، الأمر الذي نيط بالعلماء العدول، الذين يحمون القيم والمفاهيم من الفهوم والاجتهادات المعوجة، ويعودون بالأمة إلى الينابيع الأولى، والمقاربة مع فهوم خير القرون، وينفون نوابت السوء المحتملة، ويحُولُون دون تسرب علل التدين إلى أمة الرسالة الخاتمة، أو بتعبير أدق: يعودون بالتدين إلى الانضباط بقيم القرآن وبيان مقاصده وتحقيق رسالته في

(1) أخرجه ابن ماجه.

التجديد واستشعار المسؤولية عنه، وهو أحد وجوه الخلود، من بعض الوجوه، ولا أدل على ذلك من قول صاحب «رسالة القرآن» ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدُولُه، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**»(1)، وقوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَ**»(2).

- أعظم ما تمتلك الأمة:

وليس من قبيل التكرار ومعاودة القول: إن أعظم ما تمتلك الأمة، في تاريخها وحاضرها ومستقبلها، هذا القرآن، الذي يمثل النص السماوي السليم، الذي يشكل دليل الحياة، ويبين سنن الأنفس والآفاق، ويشكل الإمكان الحضاري والمحرض لمعاودة النهوض واسترداد الفاعلية، كمايشكل درع الحماية والملجأ وسبيل الخروج أثناء السقوط والهزيمة والتراجع والتخلف الحضاري، لكن يبقى السؤال الكبير والمستمر: كيف نتعامل مع القرآن وننشر رسالته في الحياة ونحقق مقاصده؟

وهذه القضية، التعامل مع القرآن، لا بد من التوقف عندها واستمرار التأمل فيها واكتشاف وتحديد مواطن الخلل، ذلك أن القرآن كدليل للحياة في مساراتها المتعددة والمتنوعة، إنما وضَع القيم والمبادئ العامة، وبيَّن السنن، التي تحكم الحياة والأحياء؛ تلك القيم القرآنية هي التي تشكل المرجعية والمنطلق وتضبط المسار وتوجهه، وترسم الفضاء الكبير لحركة

(1) أخرجه البيهقي.
(2) أخرجه أبو داود.

الإنسان والاضطلاع بوظيفته في الاستخلاف وإقامة العمران وتعمير الأرض وفق هذه القيم.

هذه القيم، من وجه آخر تعتبر موازين ومعايير تقوّم العمل والفعل الإنساني، وتسدد مساره، وترشد إلى استقامته، وتبيِّن مواطن الخلل فيه، وهي في الوقت نفسه تعطيه القيمة الحقيقية، وبذلك فالقرآن ليس مصدر خطط وبرامج وتفاصيل، ذلك أن تنزيل هذه القيم القرآنية على الواقع وتحقيق «رسالة القرآن» في حياة الناس، ووضع الخطط والبرامج وإبداع الوسائل والأدوات، في ضوء الاستطاعات البشرية، إنما هو منوط بالاجتهاد البشري، أو بتعبير آخر: بمعرفة العقل وخبرته واجتهاده، وهي بطبيعتها متغيرة متجددة بحسب حالات الناس واستطاعتهم، أي بحسب الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، وهي في حركة دائبة وكشوفات مستمرة.

فإذا كانت المبادئ العامة والقيم الهادية والمعايير الأساس للفعل الإنساني متأتية من معرفة الوحي (القرآن وبيانه) فإن وضع البرامج والخطط متأتية من معرفة العقل، حيث لا يمكن عقلاً ولا شرعاً إلغاء معرفة العقل، وهي سبيل معرفة الوحي وتدبرها، بحيث يتحول الإنسان إلى آلة صماء فاقدة للإرادة والاختيار، إضافة إلى أن الإنسان لا يمكن بحال أن يكون واضع المعيار ومحله في الوقت نفسه!

يضاف إلى ذلك ما يمكن أن ينتج عن هذا من تسلط الإنسان على الإنسان، وذلك بإعطاء نفسه الحق في أن يُشرِّع ويضع القيم والموازين لغيره من البشر وهو إنسان مثله؛ ذلك أن تاريخ الفساد في الحضارة البشرية

كان ولا يزال ناتجاً من تسلط الإنسان على الإنسان؛ وما التمييز العنصري أو الجنسي أو اللوني أو الطبقي أو الاجتماعي إلا شواهد على هذا التسلط.

والقضية التي تتطلب إعادة النظر والتفكير والتقويم والمراجعة، هي أن هذا القرآن العظيم، أقام أمة وبنى حضارة وشكل ثقافة وكان محل الوحدة الجامعة والمشروعية الكبرى للأمة، في مراحل حياتها كلها، كان منطلق النهوض، والحصن من السقوط والذوبان وذهاب الريح، فكم من الأمم والحضارات سادت ثم بادت عدا الأمة المسلمة، التي هي بالقرآن، أو ببقايا استمساكها بالقرآن، استعصت على السقوط وأبت الخضوع للدورات الحضارية المعروفة في النهوض والاستواء ومن ثم السقوط والانقراض أو الموت، وإن أصابها بعض الأذى، يقول الله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ (آل عمران:111)، ذلك أن الموت والانتهاء أمر يتعارض مع خلود الرسالة التي تحملها، والخاتمية للنبوة التي تؤمن بها، ووظيفة الشهادة التي نيطت بها.

فإذا كان نص القرآن صحيحاً كما نزل، خالداً مجرداً عن حدود الزمان والمكان، قادراً على الإنتاج والتوليد في كل زمان ومكان، وإذا كانت مرحلة السيرة، التي تمثل التجسيد العملي لقيم القرآن وتعاليمه في حياة الناس، حيث قدمت الأنموذج لتنزيل القرآن على واقع الناس، بحسب ظروفهم، إضافة إلى التجربة الحضارية التاريخية، التي استوعبت جميع الحالات الإنسانية ماثلة للعيان... إذا كان نص القرآن صحيحاً كما نزل، وكان القرآن اليوم هو القرآن المُنزل على الجيل الأول، وإذا كان الإنسان هو الإنسان، فلماذا توقف عن البناء والعطاء المأمول؟ ولماذا توقفت أمة

القرآن عن الشهادة والقيادة؟ وما هي العوائق التي تحول دون معاودة الإخراج للأمة من جديد؟

- الهجر وغياب التدبر:

والإجابة بقدر ما هي بسيطة بقدر ما هي معقدة ومتراكبة ومتداخلة؛ ذلك أن السبب - فيما نرى- هو الخلل الكبير الحاصل في التعامل مع القرآن وعدم امتلاك الفقه والخطط والبرامج والأدوات التي تمكِّن من التجسير بين قيمِه وأنشطة الحياة ومسالك الإنسان، في ضوء الاستطاعات المتوفرة والظروف المحيطة؛ هو سوء التعامل؛ هو غياب التدبر لآياته، الذي يمكِّن الإنسان من البصيرة والتدبير؛ هو غياب فقه البيِّنات والهدى والفرقان، أو هو بكلمة مختصرة: الهجر ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:30)؛ الهجر بكل آفاقه وأبعاده وآفاته؛ حتى ولو حفظنا وتلونا دون أن نتدبره ونعمل به فالهجر، من بعض الوجوه، يبقى قائماً.

ولعل الإشكالية تكمن في فهمنا المتخلف، الذي ينعكس على النصوص.. لقد أصبح فهمنا العملي لقوله، عليه الصلاة والسلام: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(1)، يعني حفظه بالذاكرة ومراجعة هذا الحفظ ولو لم نعمل ونتدبر آياته ونعرف كيف ننتفع بها، حتى باتت التلاوة والحفظ والنقل والتفنن في الرسم والخط هو منتهى القصد وغاية التعامل مع القرآن وتجنب هجره، الأمر الذي يذكرنا بقولة الحسن البصري، رحمه الله، التي بتنا

(1) أخرجه الترمذي، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

اليوم نتلبس بها بكل أبعادها: إنما نزل القرآن ليُعمل به فجعل الناس من تلاوته عملاً(!)

ونحن هنا لا نقلل من شأن الحفظ والتلاوة وما يترتب عليهما من ثواب وأجر وأنها السبيل إلى التدبر والاهتداء إلى العبر وسنن السقوط والنهوض، وإنما الذي نود قوله: إن الحفظ والتلاوة هو طريق الوصول إلى التدبر والتأمل والتفكير والتدبير لشؤون الحياة انطلاقاً من القرآن؛ ويبقى السؤال الكبير قائماً وفي كل آن:

كيف نتعامل مع القرآن، خاصة وأن تعاملنا القائم لا يحقق مقاصد القرآن وينزله على حياة الناس بقدر استطاعتهم ومن خلال ظروفهم؟

- من المبادئ والقيم إلى البرامج والخطط:

ووجه آخر للإصابة أو الإشكالية، قد لا يقل شأناً عما أشرنا إليه، وهو التوهم، الذي لا يزال يسيطر على كثير من الأذهان من أن القرآن، دليل الحياة، إنما هو كتاب خططٍ وبرامج، يكفي فيه أن نعلن أنه دستورنا، وأن الإسلام هو الحل لإشكالياتنا؛ فعلى الرغم من أن هذا صحيح بعمومه وإطلاقه، لكن شريطة أن يُستتبع باجتهادات وبرامج وخطط واستراتيجيات تنطلق من مرجعية القرآن، بحسب مشكلات الإنسان الفردية والاجتماعية والتنموية والسياسية والاقتصادية... إلخ، كما أنه لا بد أن ندرك أن القرآن إنما هو كتاب قيم ومعايير ومحددات وتوجهات، والإنسان محل التنزيل، ووسيلته، وهو المنوط به تنزيل الآيات على واقع الناس ضمن خطط وبرامج لفقه الواقع واستطاعاته وظروفه، كما تُفْهَم وتفقه من النص القرآني.

ذلك أن رفع شعار: «الإسلام هو الحل»، و«القرآن دستورنا»، وتركه معلقاً فوق رأس الجماهير المؤمنة ومحل نظرها وتطلعها دون تقديم البرامج والخطط والاستراتيجيات المنطلقة من قيم القرآن، وتحويل هذه الشعارات إلى أعمال وشعائر وممارسة، نخشى أن يؤدي ذلك إلى إجهاض هذه القيم العظيمة، وإقامة السدود النفسية بين الإنسان وبين القرآن، وبذلك يُرفع القرآن من الواقع إلى الرفوف، ومن العمل إلى الهجر، وتُجعل مجرد تلاوته عملاً يتوهم معها الخروج من عهدة التكليف بعدم الهجر.

فلذلك نقول: إن رفع هذه الشعارات دون خطط تنزيل وبرامج عمل قد يؤدي إلى القيام بأعمال وممارسات سلبية، ويدفع إلى تصرفات وألوان من التدين المغشوش والفكر الأعوج والغلو والتطرف الخطير، حيث النظر كليل، والفقه قليل، والحماس الزائد المتوثب، الذي يدفع إلى الغلو والتطرف والتعصب، دون فقه واختصاص يؤدي إلى إلغاء العمل، وانطفاء الفاعلية، وعطالة الحواس.

ونخشى أن نقول: إن ذلك سوف يقيم حواجز بين القرآن والإنسان، ويحكم على القرآن، ولو ضمنياً، بأنه عاجز عن حل مشكلات الناس المتراكمة، التي لمّا تجد حلولاً لها، وعدم الارتقاء بهم، فنسيء من حيث نظن أننا نحسن صنعاً.

- من إثبات النص إلى إعماله:

وقد يكون من أهم مظاهر الخلل في التعامل مع القرآن الكريم، أن صرف الجهود كلها تقريباً كان ولا يزال يتجه إلى الحديث عن عظمة

القرآن وبلاغة النص وصحته وإعجازه، أو بعبارة أخرى أن معظم الجهود تتمحور حول فقه النص وتفسيره وتحقيق ألفاظه ودلالاتها، فيما نعتقد أن صحة النص وسلامته وعلمية نقله وهيمنته لم تعد تحتاج لاستزادة أي مستزيد، وإنما قد يكون المطلوب اليوم فقه واجتهاد بالوسائل والأدوات، وتقدير الاستطاعات المطلوبة لإعمال النص في واقع الناس تحقيقاً لرسالة القرآن، أي إدراك أهمية إعمال النص بقدر أهمية تحقيقه وتوثيقه.

إن الذين يبذلون الجهود الكبيرة في المدارس والجامعات والمعاهد ومن على المنابر للحديث عن عظمة النص القرآني وصحته، وتحقيق مخطوطات تفسيره، على ما فيه من خيرٍ، إلا أنه يشكل نصف الطريق إلى المقصد، وقد يفتقد هذا النصف قيمته ويصبح في عداد الوسائل النظرية إذا لم نتابع الخطو إلى النصف الآخر، الذي هو إعمال هذا النصّ في حياة البشر، وتنزيله على واقعهم بقدر استطاعتهم؛ لأن ذلك على أهمية ارتباطه بالنصف الأول، إثبات النصِّ، وتحقيقه، إلا أنه يشكل المقصد النهائي لكل الجهود المبذولة لإثبات النصّ.

فقد يكون المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضى، وقد تقدمت العلوم الاجتماعية والإنسانية، التي يمكن توظيفها إلى حدٍ بعيد في فهم النص وإعماله وتقدير الاستطاعات وقياسها، قد يكون المطلوب اجتهاد مقدور في إعمال النصّ، في ضوء الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة، يوازي الاجتهاد في إثباته، ومعالجة الخلل القائم.

فالحديث عن عظمة النصّ وإعجازه البياني، ولغتنا في تراجع مستمر، وبذل الجهود الكبيرة للحديث عن إعجازه العلمي – ونحن أشد ما نكون متخلفين علمياً –... إلى آخر قائمة الإعجاز، العددي والتاريخي والإخبار بالغيب،

والمسلمون من تخلف إلى تخلف، في العلم والعمل والحضارة، أمرٌ قد يُزري بأهل القرآن، ويُلحق الضرر بدعواهم، التي لا شاهد لها على أرض الواقع.

لقد اكتفينا بالحديث عن الإعجاز عن بذل الجهود في الإنجاز، وتلك من أخطر آفات التخلف.

هذا الفهم العقيم السقيم، الذي يعطل الفاعلية ويلغي التكليف والمسؤولية، تسانده فلسفة الإرجاء المعاصر، التي تقيم أسواراً من الخوف والإرهاب الفكري يُحمِّل الرسالة القرآنية ما نحن عليه من العجز والكسل العقلي، ويُلجم الألسنة عن الاعتراض؛ لأنها بزعمهم تتطاول على المقدس (!)، ويعفي من المسؤولية، ويطارد العقل، ويعطل آلية النقد والمراجعة، وقد يؤدي إلى إقامة الحواجز بين القرآن ووصول رسالته إلى الناس وإنقاذهم مما هم فيه.

- نص الشارع وفهم الشارح:

ولعل من الأمور الجديرة بالنظر والتفكر أن الإنتاج البشري والاجتهادات المتنوعة، التي تمحورت حول القرآن، بدل أن تُشكل جسراً معرفياً تمنح الرؤية والأدوات، وتخصب الذهن، وتغني المعرفة، وتمكِّن من النظر فتسهل العودة إلى القرآن، ودخول البيوت من أبوابها الصحيحة، والإفادة لذلك من عطاء هذه العقول أثناء التعامل مع القرآن، والاهتداء بهديه، والارتقاء إلى التي هي أقوم في أنشطة الحياة المختلفة والمتجددة، تحولت في كثير من الأحيان إلى جدران وحواجز مانعة، عزلت القرآن عن حياة الناس، ادعاءً بأنها إنما استنبطت من القرآن، وأن القرآن هو مرجعيتها، فلا حاجة إلى

العودة إلى القرآن، والنهل منه، حيث لم يترك الأقدمون للمتأخرين شيئاً (!)

وبذلك، تعطلت فاعلية القرآن في الحياة وصياغة الإنسان، وتحول من المجتمعات إلى المقابر، والاكتفاء برأي واجتهاد الشارح، القابل للخطأ والصواب، المحكوم بحدود عصره ومشكلاته، عن نصّ الشارع المعصوم، الخالد العطاء لكل زمان ومكان.

وليس أقل من ذلك خطورة، وكرد فعلٍ غير سوي، محاولات القفز من فوق هذه الاجتهادات والفهوم والرؤى، والتعامل مع القرآن مباشرة، دون امتلاك الأداة والمؤهل والتحقق بالمحصلة التراثية.

وقد يكون المنهج الأسلم، والله أعلم، في العودة إلى القرآن، الينبوع الأول، الخالد على الزمن، وتدبر آياته، واسترداد دوره في معاودة إحيائنا وحياتنا، وإعادة اعتماده المعيار الحاكم على كل إنتاج واجتهاد بشري، من خلال استصحاب هذه الرؤى والاجتهادات، دون تقديس لأي رأي، وإحلاله مكان القرآن المقدس المعصوم، فـ«كل إنسان يؤخذ من كلامه ويُرد إلا صاحب هذه القبر ﷺ»، كما يقول الإمام مالك، رحمه الله، بحيث يبقى القرآن هو الهادي للتي هي أقوم، والأساس، والمعيار، والميزان لقول البشر، مهما بلغوا.

ومحصلة القول: إن القرآن منهج حياة كامل، ودليل عمل، ومصدر قيم، ودستور إصلاح وبناء عقيدة، ومصدر تشريع، يقدم رؤية للحياة، ابتداءً من النشأة الأولى (بدء الحياة) وحتى النشأة الآخرة (انتهاء الحياة)، ويجيب عن الأسئلة والاستفهامات الكبرى الخارجة عن ساحة العقل ونطاق الحواس، ويقدم لإنسان الرسالة الخاتمة تجربة النبوة التاريخية، ويبصّره

بقوانين السقوط والنهوض، ويدعوه للاعتبار والإفادة من هذه التجارب، التي تحكمها سنن وقوانين مطردة لا تتبدل ولا تتحول، ويطلب إليه تسخيرها ومغالبتها.

لكن الإشكالية أن الإنسان اليوم أضاع بوصلة الحياة في القرآن، وحوّله إلى ساحةٍ للتبرك، وتحول هو إلى نوع من العطالة عن التزام المنهج السنني وتعاطي الأسباب، التي هي أقدار الله في تسيير الحياة، باسم الدين.. فكيف يأمل من هذا الإنسان «الكَلْ»، الذي وصفه القرآن بقوله: ﴿ **أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ** ﴾ (النحل:76)، النهوض والإصلاح والصلاح؟

رسالة القرآن في الإصلاح

إن هاجس الإصلاح والتنمية وسؤال النهضة كان ولا يزال همّ الإنسان ومؤرقه الدائب، ولقد سلك الإنسان تاريخياً صوب الإصلاح طرائق قدداً، ولعل مشاريع الإصلاح، التي طُرحت على الساحة الإسلامية، بعد انفصال السلطان عن القرآن وتحوّل القرآن إلى تراتيل وتلاوات بعيدة عن صُنع الحياة، أكثر من أن تحصى، وقد باءت جميعها بالفشل في استنقاذ الإنسان، واسترداد إنسانيته، وتحقيق كرامته، وتوفير اختياره؛ ابتداءً من المذاهب والدعوات القومية إلى المبادئ والأنظمة الماركسية والاشتراكية، التي توهمت أن أس البلاء في الرأسمالية وامتلاك وسائل الإنتاج، إلى الثورة وإيقاد الصراع الطبقي، إلى مذاهب الحرية الاقتصادية والترويج لمؤسسات التجارة الحرة، إلى استعارة واستيراد الخطط والبرامج التربوية والتنموية، التي عانت ولا تزال من غربة المكان والإنسان، هذا عدا عن المذاهب الفلسفية الكثيرة، التي انتهت عند حدود المعارف الباردة، التي لم تُحرك ساكناً، وبعثرت رقعة التفكير، وعجزت أن تغير حتى سلوك أصحابها، بله الآخرين.

فرحلة الشقاء هذه، الذي كان الإنسان أول ضحاياها، حتى في أرضها ومنبتها، أعادت التفكير بموضوع الإنسان والمراجعة للخطط والقيم والمبادئ من جديد، وإلى اعتبار الإنسان أو إنسانية الإنسان هي هدف الإصلاح ووسيلته في الوقت ذاته؛ ذلك أن ما خلّفت تلك التجارب من حياة الضنك جعلت الإنسان يقف حائراً قلقاً معذباً خائفاً شاكاً يعاود البحث من جديد... إنه الإعراض عن طريق القرآن في الإصلاح، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ

عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ (طه:124).

إن منهج القرآن في الإصلاح توجَّه صوب الإنسان لتغييره وإعادة صياغته وبناء شاكلته التي يعمل عليها ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ (الإسراء:84)، فالإنسان في القرآن هو وسيلة التغيير، وهو هدف التغيير.

- فشل مشاريع الإصلاح:

ولعل من أهم أسباب فشل مشاريع الإصلاح والنهوض والتغيير:

- غياب النظرة الكلية الشاملة:

إن غياب النظرة الكلية الشاملة لأبعاد التنمية، وعدم الإحاطة بعلم جوانب إشكالية التخلف والتراجع الحضاري ودراسة أسبابها، من قِبل متخصصين وخبراء، والاقتصار على معرفة الآثار، وغلبة النظرة الجزئية السطحية لبعض جوانب المشكلة، على مستوى الفكر والفعل، والعجز عن اختيار الموقع الفاعل في ضوء الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة... هذا التبعيض، إن صح التعبير، أدى إلى الفشل والعجز والخزي ومزيد من التراجع، يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ (البقرة: 85)، ولعل الكفر المقصود هنا هو كفر عملي ولو لم يُعترف به فكرياً.

- الاستيراد وغربة المكان:

المغلوب والمتخلف مولع دائماً بتقليد الغالب المتقدم، لذلك يتوهم أن استيراد أشيائه وخططه في النهوض، بلا فقه ولا روية ولا وعي ومعرفة بما ينفع وما يضر، وما يناسب وما لا يناسب، يمكن أن يحقق له قفزات نوعية وطي مسافة التخلف! ونحن هنا لا ندعو للانغلاق والانكفاء وعدم الإفادة

مما عند «الآخر»، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها، لكن الذي ندعو إليه أن نمتلك المعيار القيمي (القرآن) الذي يُبصّرنا ما نأخذ وما ندع؛ وقد ثبت علمياً وواقعياً أن الإنسان المتخلف، المنسلخ عن مرجعيته، العاجز عن اكتشاف إمكاناته الذاتية الكامنة للنهوض وامتلاك القدرة على تطويرها، إن هذا الإنسان العاجز عن الاستفادة من ذاته ورصيده الحضاري، هو أعجز عن إمكانية الإفادة من «الآخر»، وأن الذي يقدر على الإفادة واختيار ما ينفعه هو الإنسان المتقدم، لذلك سقطت مشاريع وخطط الاستيراد وتكديس الأشياء؛ لأنها تعاني من غربة المكان وخيبة الإنسان.

- عدم التوافق مع المعادلة الاجتماعية:

وليس ذلك هو السبب الوحيد، فالمعروف أن هذه المشاريع جاءت ثمرة لتراث وتاريخ وعقيدة وثقافة ومرجعية ومعادلة اجتماعية، وبالتالي فهي سوف تفتقر في المكان المنقولة إليه هذه المحاضن والمناخات الضرورية لنموها وتحقيق مقاصدها.. لقد سقطت لمغايرتها المعادلة الاجتماعية للأمة ومرجعيتها وعدم إحاطتها بمشكلات الأمة، ولم ينفع معها التقليد والمحاكاة والتكديس.

ولعل في الإشارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، و﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ دلالة واضحة على أهمية الانبعاث الذاتي لخطط التنمية والنهوض، بحيث تكون وليداً شرعياً للأمة، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران:164)، ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:2).

فإذا تقرر عندنا أن الأمة المسلمة تشكلت من خلال كتاب (القرآن)، وتجسدت في حياة الناس من خلال السيرة وجيل خير القرون، وأنه لا بد لكل مشروع نهوض وخطة تنمية من مرجعية تُشكل لها الموجِّه والضابط المنهجي والمعيار، وأن القرآن هو المرجعية والضابط المنهجي لهذه الأمة، وإذا كان نهوض أي مجتمع مرهون بتوفير شروط وظروف ميلاده الأول، أدركنا العلة الأساس في العجز والتخلف وفشل مشروعات النهوض، حتى تلك التي رفعت شعارات الإسلام دون توفير ظروف وشروط ومحاضن وبرامج وخطط هذا الطرح، حيث اكتفت برفع الشعار وغابت في الماضي واكتفت بالفخر به لمعالجة مركب النقص والعجز عن الإنجاز، دون إبصار لمعطيات ومتغيرات العصر، فعانت غربة الزمان كما عانت المناهج والمشاريع المستوردة غربة المكان.

- سبيل التغيير والخروج:

والإصلاح، في الرؤية القرآنية، يبدأ من تغيير عالم الأفكار وإعادة بناء الشاكلة الثقافية، كما أسلفنا؛ والمعادلة الصادقة للتغيير والإصلاح تتمثل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:11)، فكيف نتعامل مع القرآن لتغيير عالم أفكارنا وبناء شاكلة ثقافية قرآنية، بحيث يصبح ذلك وسيلة تغيير؟

وكيف يمكن لنا أن نُنضج منهج الاقتداء، ونحدد موقع الاقتداء لواقعنا ومجتمعنا في مسيرة السير النبوية، في ضوء استطاعاتنا؟ وكيف يمكن أن نبني العقل الناقد، ونعيد للعقل مكانه وفعله، في ضوء معرفة الوحي؟ وكيف نفقه قوانين السقوط والنهوض ونصل إلى مرحلة مغالبة قدر

بقدر، التي لا تتأتى إلا باستيعاب المنهج السنني في الأنفس والآفاق؟

فالإنسان في الإسلام خليفة الله في الأرض، والقرآن دليله إلى بناء الحضارة وإقامة العمران، وفق قيم السماء، ومنحه الرؤية على تسخير السنن والقوانين.

فالنص القرآني يشكل فضاءً واسعاً يحيط برحلة النبوة في مسيرتها التاريخية الطويلة، ويواكب الإنسانية في مسيرتها إلى أن ينشئ الله النشأة الآخرة، ولا يزال البشر يبدون في إدراك النص القرآني ويعيدون، كل يغترف منه حسب اختصاصه ومعرفته وثقافته، فالقرآن حمّال أوجه، ولكلٍ فيه نصيب: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾(الرعد:17)؛ إنه فضاء مفتوح غير متناه، لا يمكن أن يُختزَل بمنهج أو مذهب أو جماعة أو طائفة أو زمان أو مكان، أو يمكن إغلاقه دون سائر الناس، محل الخطاب، وقد يسره الله للذكر، وحض العقل الإنساني والجنس البشري وحرضه بكل مستوياته وأزمنته على النظر والادّكار والتدبر والتبين والاعتبار، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(القمر:17).

ولعل من الأمور الملفتة حقاً أن المتأمل في سياق قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، الذي ورد في سورة القمر، يدرك أنه إنما جاء بعد بيان جملة من أحوال الأمم - قوم نوح وعاد وثمود ولوط وآل فرعون، على تباين الزمان والمكان والإصابات المتنوعة- بسبب نكولها عن تعاليم الله وارتطامها بسننه أو غفلتها عنها، والله يقول: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(القمر:15)، وليس المقصود بأمر التيسير فقط مجرد القدرة على التلاوة؛ لأن القرآن كما أنه خطاب أمة فهو خطاب نخبة.

- الإعجاز وعزمات البشر:

ولعل هذا التيسير، الذي يشكل بعض ملامح الإعجاز، هو الذي حرك الهمم، وأَهّل النفوس، وشحذ العقول لمحاولة محاكاة النص القرآني واستكناه أبعاده ومقاربة أسلوبه، وكشف وجوهه، والتعرف إلى كنوزه، فكان النص القرآني المعجز الميسر للذكر سبيلاً للارتقاء باللغة والأسلوب والتطور في النظر والاجتهاد والعطاء، حيث إن مفهوم الإعجاز القرآني الذي يعني - فيما يعني - العجز عن الإتيان بمثله، لم يكن يعني للمسلم العجز والعقم والعطالة وانطفاء الفاعلية، وإنما كان الدافع الكامن وراء كل الأنشطة الذهنية، يمدها بالعطاء الثقافي والتشريعي والتربوي والاجتماعي والسياسي والفكري، وحتى الفلسفي بشكل عام، بمعنى أن النص القرآني المعجز كان المحور لثقافة الأمة والمصدر لانطلاقها في شعب المعرفة المختلفة، بالمفهوم الواسع لمصطلح «الثقافة» على مستوى المعرفة والتربية معاً.

ولئن كان المعنى المتبادر لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ سهولة تلاوة وإمكانية تداول وتناول النص القرآني وتحصيل المدركات والمقاصد لكلٍ بحسب مؤهله، فإنه بهذا التيسير يشكل مائدة العقل والنفس للناس جميعاً.

إن المتأمل المتدبر في سياق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يبصر فيه دلالات عميقة وعميقة جداً، لكن هذا العمق لا يحول دون أن يأخذ كل إنسان منه بحسب كسبه العلمي والمعرفي، وليس أقلها قوانين الحركة الاجتماعية، ويبقى النص دائم العطاء بحسب ترقي الإنسان وارتقائه، ولا تُدرك تلك الأعماق ويتوصل إلى غورها إلا عند انتهاء الحياة، فهو ميسر لكل الناس، وكل الأجيال، وكل الاختصاصات، وكل المناهج، سفر مفتوح دائماً، ولكل العصور، ليس مغلقاً بطبيعة خاتميته وخلوده على منهج أو عصر أو طبقة أو نخبة أو تخصص أو ظرف اجتماعي

أو ثقافي، إنه مصدر ثقافة الأمة، التي يشارك فيها الجميع، بأقدار متفاوتة لكنها متجانسة، من العامي البسيط وحتى العالِم المكين.

إنه القرآن، معجزة الإسلام الخالدة.

والقرآن على الجملة، هو كتاب حياة كاملة، وهداية للإنسان، فهو ليس كتاب لغة وبيان وأدب وتربية وعلم وتاريخ وفنون وعلوم، وإنما يستخدم ذلك كله لتحقيق غرضه في الهداية، فهو يمثل القيم المرجعية لذلك كله، حيث يؤهِّل الإنسان، ويضعه في مناخ ذلك، ويدفعه للإنتاج النافع في شتى هذه الميادين، ويقدم له النماذج في المجالات المتنوعة للاهتداء، لكن ذلك جميعه لا يخرجه عن مقصده وهدفه، صناعة الإنسان المستخلف لصنع التقدم والحضارة، وفق منهج القرآن، وأن هذه الروافد والجداول من الرؤى والمناهج جميعها تخرج من القرآن وتعاود الصب فيه، وتعين على فهمه.

ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى الأثر الكبير، الذي أحدثه القرآن المعجز في العقول والنفوس ووجوه الترقي اللغوي والبياني والبرهاني مقاربة ومحاكاة للإعجاز، ولا المناخ العلمي الذي دفع الإنسان المسلم إلى الكشف والإبداع والتحريض والفاعلية لعقله ونظره، ليتدبر ويتبين فيندفع صوب كشف الحقيقة وتسخير معطيات الكون وفق منهج القرآن.

ولحكمة يريدها الله أن الكثير من آيات الأنفس والآفاق وردت في القرآن مجملة، لينطلق الفكر والفعل في آفاقها وأمدائها وفضاءاتها الواسعة، يكشف عن موجوداتها، ويكتشف قوانينها، ويعمل على محاكاتها ومقاربتها وابتكار وسائل إبصارها. وما أعتقد أن هناك كتاباً في تاريخ البشرية شكل منطلقاً لمجموعة دراسات متنوعة ومصدراً لثقافة إنسانية في بيئات جغرافية وتاريخية وزمانية متعددة التنوع موحدة المصدر كالقرآن الكريم.

- **ديمومة العطاء:**

والحقيقة أن رحلة البحث في فضاءات النص القرآني ماضية لا تتوقف حتى انتهاء رحلة الحياة، وهذا يشكل بحد ذاته دليل الخلود والحيوية وديمومة العطاء، ويؤكد حقيقة الإعجاز، كما أن الجدل والتمحور حول النص ما يزال مستمراً أيضاً، بين مدافع عنه، كاشف لإعجازه وكنوزه، وبين خارج عليه يحاول النيل منه وإلحاق الإصابة به؛ وبين هذا وذاك يبقى النص القرآني خالداً خلود الزمان، ومحلاً لاهتمام الناس جميعاً وفائدتهم، من الأميين إلى الأكثر تعلماً وتحضراً وكسباً معرفياً.

لكنني أعتقد، في إطار ذلك كله، وفعل ذلك كله، على أهميته وضروريته، أن من المقاصد الأساسية التي لا يجوز أن تغيب ولو لحظة واحدة، أو تتراجع عن مرتبتها وأولويتها أثناء النظر والتهيج والبحث والجدل حول فهم النص وتحديد معطياته: أن هذا القرآن إنما أنزل ليُتدبر فيعمل به، فلا يصح أن يستغرق الجدل حول النص القرآني الجهد كله، والاستغناء بالجدل وصوابية المنهج وأهميته عن العمل بمقاصده، فيحول ذلك دون التوجه صوب قراءة المجتمعات ومعرفة استطاعاتها وإمكاناتها ومن ثم إعادة تجسير العلاقة بين الأمة والنص القرآني، لأنه خطاب أمة، حتى ولو كانت مناهج التعامل معه إنتاج نخبة، لكن يبقى تحقيق عطاء القرآن إنجاز أمة.

إن الاقتصار في التمركز حول مناهج الفهم وأدواته، على أهميتها وضروريتها - باعتبارها تشكل مرتبة الفكر قبل الفعل- إذا لم يتم تجاوزها إلى الفعل وتنزيل القرآن على واقع الناس وبناء ثقافة الأمة من خلال الاقتصار على آياته وتقويم مسيرتها بقيمه، فقد يخرج بالأمة من دائرة النص، ويحول دون التعاطي معه، إلى جدلية نخبة، كما يخرج النص من إطار العقيدة الفاعلة المحركة في الأمة، الدافعة للإنجاز، المانعة من

السقوط والانقراض، إلى إطار الفلسفة ذات المعارف النظرية الباردة، حيث يقتصر العمل على النظر والجدل وينحصر في خاصة الخاصة، التي تعيش معزولة عن الأمة، فيتحول الجدل حول النص عملاً؛ ويغيب عن عقولنا وإدراكنا المقصد الحقيقي ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، فإذا تعطلت الهداية أو توقفت فإن ذلك يعني خللاً في التعامل مع القرآن.

ويبقى أن الهاجس الدائم، أو القلق السوي، الذي يشكل المهماز والمحرض الحضاري، ويكوِّن ثقافة الإصلاح والتغيير، ويبني محاضنه، ويؤدي إلى التبصير بوسائله وإبداع أدواته هو التفكير الدائم بالتي هي أقوم.. هذا التفكير هو الرافعة الحقيقية للنهوض الحضاري؛ لأنه يدفع إلى قراءة الواقع وتقويمه وتحديد مواطن الخلل ووسائل تجاوزها، وفق رؤية دقيقة فقهية بصيرة، حيث المطلوب دائماً التفكير بالارتقاء للتي هي أقوم.

وبالإمكان القول: إن معرفة الوحي هي التي تجيب عن سؤال أهداف التغيير: «لماذا التغيير»؟ ويأتي دور معرفة العقل لتجيب عن برامج ووسائل وأدوات التغيير: «كيف يكون التغيير»؟

وبعد:

فإن «رسالة القرآن» عطاءٌ إنسانيٌ جديد متجدد «**لا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ**»؛ آفاقها لا تحدها الجغرافيا: «**إنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**»(1)، «... **ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار**...»(2)، وقد بلغ؛

ولا يحدها التاريخ، ابتداءً من النشأة الأولى وحتى ينشئ الله النشأة الآخرة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى:18- 19)؛

ولا يحاصرها الزمن بكل مكتشفاته العلمية وكسبه المعرفي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت:42)؛ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:53)؛

إنها فضاء لا نهائي، وعطاء يمتد إلى ما بعد الموت، لا ينفد إلا بانتهاء الحياة على الأرض: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف:109).

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(1) أخرجه مسلم.

(2) أخرجه ابن حبان.